السياسة اللغوية بالوكالة: الأبعاد الاستراتيجية والجيوسياسية للمشروع الفرنكوفونى فى إفريقيا (حالتا غانا والكاميرون)"

عبد الحفيظ اشريطية

جامعة محمد الأول بوجدة – المملكة المغربية

الملخص: يناقش هذا المقال الأبعاد الاستراتيجية للسياسة اللغوية الفرنسية، متتبعا مسارها التاريخي منذ الحقبة الاستعمارية وصولا إلى مأسستها ضمن "المنظمة الدولية للفرنكوفونية". ويسلط البحث الضوء على الدوافع الجيوسياسية لفرنسا، المتمثلة في مواجهة الهيمنة الأنجلو-أمريكية ثقافيا واقتصاديا، والحفاظ على نفوذها في مرحلة ما بعد الاستعمار. ومن خلال اعتماد مقاربة تحليلية، يكشف المقال كيف توظف المنظمة أهدافا تنموية واقتصادية وحقوقية بصفتها أدوات لتوسيع رقعة اللغة الفرنسية وحماية مصالحها الكولونيالية. ولتدعيم هذا الطرح، يستعرض البحث دراسة حالتين من القارة الإفريقية التي باتت تمثل الثقل الديموغرافي الأكبر للفرنكوفونية في العالم، وهما: جمهورية غانا التي تبنت الفرنسية لأسباب سياسية واقتصادية محضة رغم انتمائها للمجال الأنجلوفوني، مما يبرز دور النخب السياسية في تكريس التبعية اللغوية، وجمهورية الكاميرون التي تعكس إرثا معقدا من سياسات الاستيعاب الفرنسية التي أدت إلى تهميش وإقصاء مئات اللغات الأصلية لصالح الهيمنة المزدوجة للغتين الفرنسية والإنجليزية. ويخلص المقال إلى أن السياسة اللغوية بالوكالة تعتمد بشكل أساسي على الأنظمة السياسية المحلية لتأمين استمرارية النفوذ الثقافي الفرنسي وتهميش الهويات الوطنية الإفريقية.

الكلمات المفاتيح: الفرنكوفونية، السياسة اللغوية، الهيمنة الثقافية، الجيوسياسة، غانا، الكاميرون، إفريقيا.

Abstract: This article examines the strategic dimensions of French language policy, tracing its historical trajectory from the colonial era to its institutionalization within the "International Organisation of La Francophonie". The research highlights France's geopolitical motives, specifically countering Anglo-American economic and technological hegemony while maintaining its post-colonial influence .Through an analytical approach, the article reveals how the organization leverages developmental, economic, and human rights

objectives as tools to expand the reach of the French language and safeguard its colonial interests .To substantiate this argument, the study presents two case studies from the African continent, which now represents the largest demographic stronghold for the Francophonie worldwide: the Republic of Ghana, which adopted French for strictly political and economic reasons despite belonging to the Anglophone sphere, illustrating the role of political elites in perpetuating linguistic dependency ,and the Republic of Cameroon, which reflects a complex legacy of French assimilation policies that led to the marginalization and exclusion of hundreds of indigenous languages in favor of a dual hegemony (French and English) .The article concludes that proxy language policies rely fundamentally on local political regimes to ensure the continuity of French cultural influence and the marginalization of African national identities.
Keywords: Francophonie, Language Policy, Cultural Hegemony, Geopolitics, Ghana, Cameroon, Africa.

مقدمة:

تشكل السياسات اللغوية إحدى أبرز أدوات النفوذ في التفاعلات الجيوسياسية المعاصرة، وهو ما يتجلى بوضوح في النموذج الفرنسي الذي ارتبطت معالمه عضويا بالحملات الاستعمارية التوسعية في إفريقيا وآسيا وأمريكا الشمالية، حيث خاضت فرنسا، إلى جانب هيمنتها العسكرية، حربا ثقافية سخرت لها قطاعات الاقتصاد والتعليم والإعلام لبسط نفوذها اللغوي وتكريس شخصيتها الثقافية، دون أدنى مراعاة للخصوصيات الهوياتية للشعوب الخاضعة لسيطرتها. غير أن التحولات السياسية العميقة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية فرضت على فرنسا تحديات غير مسبوقة هددت مكاسبها التاريخية، وتمثلت أساسا في تنامي حركات التحرر الوطني المتعطشة لإحياء لغاتها الأصلية، فضلا عن صعود الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها قوة منافسة فرضت لغتها الإنجليزية في مجالات الاقتصاد والبحث العلمي. وأمام هذا التضييق المزدوج، سارعت فرنسا إلى إنقاذ إرثها عبر مأسسة نفوذها اللغوي وإضفاء طابع شرعي على طموحاتها من خلال تأسيس منظمة دولية للناطقين بالفرنسية عام 1970، استجابة لأعراف المجتمع الدولي الجديد التي تدعو إلى التعاون الثقافي.

تأسيسا على ما سبق، يسعى هذا المقال إلى تفكيك الأبعاد الاستراتيجية للمشروع الفرنكوفوني، مبرزا كيف يُوظَّف الوضع الاقتصادي والتعليمي المتردي للدول النامية بصفته غطاء لتمرير "سياسة لغوية بالوكالة" تضمن استمرارية الهيمنة الفرنسية في مرحلة ما بعد الاستعمار. ولتعميق هذا الطرح، يسلط البحث الضوء على الفضاء الإفريقي باعتباره الخزان الديموغرافي الأبرز للغة الفرنسية، متخذا من التطورات اللغوية والسياسية في كل من جمهورية غانا وجمهورية الكاميرون معيارا لرصد آليات هذا التمدد الاستراتيجي واختراقه للسيادة اللغوية المحلية.

1. الجذور التاريخية والدوافع الاستراتيجية لمأسسة النفوذ الفرنكوفوني.

تشكلت السياسة اللغوية الفرنسية، بالموازاة مع الحملة الاستعمارية التي قادها الفرنسيون في كل من إفريقيا وآسيا وأمريكا الشمالية، فقد اختارت فرنسا نهجا استعماريا خاصا، سعت من خلاله إلى بسط نفوذها الثقافي واللغوي، دون مراعاة الخصوصيات الهوياتية للمجتمعات الواقعة تحت سيطرتها. فإلى جانب خطها العسكري، خاضت فرنسا حربا ثقافية موازية، سخّرت من أجلها الاقتصاد والتعليم والإعلام، ومارست فيها مختلف أنواع الضغوطات، حتى تمكّن للثقافة الفرنسية في ما وراء البحار.

تحقق، بالفعل، جزء كبير من الأهداف الثقافية التي خططت لها فرنسا، فقد تمكنت مع مرور الوقت، من جعل الشخصية الفرنسية، بكل مقوماتها، معيارا للتحضّر في المجتمعات الأخرى، حيث الكمال في كل ما هو فرنسي، لغة وثقافة وتفكيرا. لكن الظروف السياسية التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية، فرضت على فرنسا مضاعفة جهودها، حتى تحافظ على "مكاسبها" الثقافية بمستعمراتها، فما لبثت أن مأسست معركتها اللغوية، وأسبغت عليها طابعا شرعيا، عبر تأسيس رابطة تضم الدول والشعوب الناطقة باللغة الفرنسية، تماشيا مع أعراف المجتمع الدولي الجديد، الذي يدعو إلى الانفتاح و "التعاون الثقافي".

كرّست رابطة الفرنكفونيين كامل جهودها لخدمة الثقافة الفرنسية، منذ اعتمادها "منظمة دولية للناطقين بالفرنسية" عام 1970م، وقد ركّزتْ منذ البداية على تحديين قويين، هما بالأساس، سبب نشأتها:

- التحدي الأول: تحرر الأقطار التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي.
- التحدي الثاني: بروز الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية، منافسة للأطماع الأوروبية بشكل عام، والفرنسية بشكل خاص.

فشعرت فرنسا، مع هذا، بالكثير من التضييق على اللغة الفرنسية، فهي من جهة، تواجه تعطّش الهويات المتحررة إلى لغاتها الوطنية، ومن جهة أخرى، تكافح لضمان مكانتها إلى جانب اللغة الإنجليزية التي أصبحت لغة الاقتصاد والبحث العلمي.

تُقدم فرنسا "مشروعها الفرنكفوني" بعيدا عن المواجهة اللغوية التاريخية التي أعلنها الفرنسيون منذ القرن السادس عشر للميلاد، وغالبا ما تتأسس أنشطة المنظمة الدولية للفرنكفونية على الوضع الاقتصادي المتردّي، والواقع التعليمي المتخلف للدول النامية، وهو ما اعتبره الكثير من المفكرين ببلدان العالم النامي، بمن فيهم الفرنكفونيون، مجرد تبرير، تسعى من خلاله فرنسا إلى حماية نفوذها الاستعماري، على المستويين الاقتصادي واللغوي[154]، وتؤسس عبره لمرحلة (ما بعد الاستعمار).

وقد أشار أستاذ العلوم السياسية في جامعة كولورادو بولدر الألماني ويليام سافران William Safran إلى أن "قضية اللغة والثقافة" مثلت أحد أكبر اهتمامات السياسة العامة بفرنسا منذ (نظام الحكم القديم Ancien régime)، وبعد كل ما تحقق من تكامل ثقافي ووحدة سياسية، تواجه فرنسا، اليوم، تحديا داخليا يتمثل في انبعاث لغات ولهجات إقليمية داخل فرنسا، وتحديا خارجيا، تجلى في الأثر السلبي الذي شكله (الاتحاد الأوروبي) على اللغة

[154] Jody L. Neathery-Castro and Mark O.Rousseau, Does French Matter ? France and Francophonie in the Age of Globalisation. The French Review, Vol. 78, No.4, March 2005. University of Nebraska at Omaha , USA. P 679.

الفرنسية، خاصة بعد اعتماد الإنجليزية لغة مشتركة دوليا، في إطار منظمة التجارة العالمية. وقد زاد مستوى التحدي، يؤكد سافران، عندما ارتبطت الهيمنة اللغوية ارتباطا وثيقا بالقوة الاقتصادية والريادة التكنولوجية[155].

في هذا السياق، اتهم بيير بورديو Pierre Bourdieu مؤسسات الاقتصاد العالمي بأنها تسعى إلى فرض الأنموذج الأمريكي، وهو ما سَيَحْرِم "القوى" الأخرى من مزايا تنافسية هامة، اقتصادية وسياسية ولغوية. وقد كان هذا منطلق مونييه Meunier أيضا، حين دعت إلى ترويج اللغة الفرنسية، والعمل، بقوة، على إبطاء (المد اللغوي الإنجليزي)[156].

هذا الوضع، لم تتوان المنظمة الدولية للفرنكفونية نفسها في عرضه على رأس كل قمّة، وقد عبّرت أكثر من مرة عن رفضها للحيف الذي طال اللغة الفرنسية في السّوق العالمية، وكان من أبرز توصياتها في الموضوع، تلك التي قدمتها في قمة مونكتون Moncton بكندا عام 1999م والتي دعت فيها منظمةَ التجارة العالمية إلى ضمان حق جميع الدول الأعضاء في تطوير سياساتها اللغوية والثقافية الخاصة[157].

- المنظمة الدولية للفرنكوفونية: الأبعاد التنموية غطاء لسياسة لغوية بالوكالة

انطلاقا من خلفية ثقافية تاريخية، تشكلت النزعة الفرنكفونية، وعلى أساسها بنى الفرنسيون موقفهم من اللغات الأخرى، ومن اللغة الفرنسية نفسها. فإلى جانب المنطلق التوسّعي، والحساسية الشديدة من تفوق اللغة الإنجليزية، اقتصاديا وتكنولوجيا، سبق أن ترسخت لدى الفرنسيين فكرة (عالمية اللغة الفرنسية)*، الأمر الذي جعلهم ينزعون إلى بسط نفوذهم اللغوي طيلة مسارهم الكولونيالي. وإذا كانت معركتهم فيما مضى قد قامت على مواجهة التحرر

---

155 نفسه. ص679

156 نفسه، ص 680

157 نفسه. ص 681

* يذكر لويس جان كالفي أن المؤلف والمترجم الفرنسي أنطوان دي ريفارول Antoine de Rivarol (1753م-1801م) هو من أسس لهذه الفكرة في مقال له بعنوان : "خطاب عن عالمية اللغة الفرنسية" « Discours sur l’universalité de la langue française ».

الترابي، فإنها اليوم قائمة على مواجهة حركات التحرر اللغوي، وفي كلا المرحلتين حضر هاجس التوسع الثقافي، وبكل قوة.

يظهر من طبيعة الأهداف التي تصرّح بها المنظمة الدولية للفرنكفونية، أنها ليست قصرا على اللغة الفرنسية، بل هي مجموعة أهداف تحمل أبعادا اجتماعية وتنموية دولية. فحسب الموقع الإلكتروني الرسمي الخاص بها، تُحدد المنظمة أهدافها فيما يلي:

أ – تعزيز اللغة الفرنسية والتنوع الثقافي واللغوي.

ب – تعزيز السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ج – دعم التعليم والتدريب والتعليم العالي والبحث.

د – تعزيز التعاون الاقتصادي لدعم التنمية المستدامة.

وإذا تفحصنا طبيعة هذه الأهداف، سنجد أنها متلازمة، تتحقق في إطار شمولي غير قابل للتجزيء، أسّها هو (دعم اللغة الفرنسية). ولضمان هذا الدعم، كان لا بد للمنظمة من الارتباط بالحياة السياسية والاقتصادية والبرامج التعليمية، وكذا المجال الحقوقي للدول الأعضاء. أما عن التنوع الثقافي فإن المنظمة تحرص حرصا شديدا على أن يكون في اتجاه واحد، يخدم توسع اللغة الفرنسية، و"يحمي" المجتمعات الفرنكفونية من اللغات والثقافات الأخرى، ليس خوفا منها، وإنما بحثا عن مزيد من الامتداد للثقافة الفرنسية.

في هذا السياق، يؤكد عبد الإله بلقزيز، أنه "من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة إلى الفرنكفونية مجرد تعبير عن حالة من الخوف والهلع من رؤية الميراث الثقافي واللغوي الفرنسي مرميا على قارعة الطريق، أمام محاولة أبناء قسم من البلدان العربية استعادة لسانهم المصادَر، وإن يكن في ذلك نصيب من الصحة ليس يُنكَر. بل الأولى، القول إن وطأة تلك الدعوة اشتدّت في حقبة التعريب المدرسي والإداري. وأن الحري بالعناية والتسجيل في هذا الباب، هو أن فكرة الفرنكفونية قديمة قدم المشروع الاستعماري الفرنسي في بلادنا العربية ومحايثة له، بمثل ما

هي باقية، وستبقى، ما بقي في جعبة فرنسا بصيص من التطلّع إلى مقاربة عالمنا بعين كولونيالية تبحث عن الجزية الثقافية"[158].

ينسحب هذا الوضع، على بقية دول إفريقيا الفرنكفونية التي لم ترقَ بعد إلى تلك العلاقة الأفقية التي تجمع بين الدول الفرنكفونية المتقدمة (فرنسا وبلجيكا وكندا)، وظلت، إلى حدود اليوم، ميدانا خصبا يضمن المزيد من الحياة للثقافة الفرنسية، والمزيد من القوة للقرار السياسي الفرنسي.

وبالاطلاع على الإحصاء السكاني الخاص بالمجال الحضري لسنة 2022م كما هو وارد في الجدول التالي:

المدينة	الدولة	عدد السكان
1. كينشاسا	**الكونغو الديموقراطية**	**12,836,000**
2. باريس	**فرنسا**	**11,060,000**
3. أبيدجان	**الكوت ديفوار**	**5,417,000**
4. ياوندي	**الكاميرون**	**4,603,000**
5. الدار البيضاء	**المغرب**	**4,314,000**
6. باماكو	**مالي**	**4,014,000**
7. واغادوغو	**بوركينافاسو**	**3,831,000**
8. الجزائر	**الجزائر**	**3,779,000**
9. دكار	**السينغال**	**3,775,000**

158 عبد الإله بلقزيز. الفرنكوفونية، إيديولوجيا، سياسات، تحدي ثقافي - لغوي (حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية). مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ماي 2001م ص 18.

10. مونتريال	كندا / مقاطعة الكيبيك	3,707,000

سنجد أن بعض مدن إفريقيا شكّلت أكبر بنية ديموغرافية فرنكفونية في العالم، إلى درجة أن العاصمة الفرنسية باريس احتلت المرتبة الثانية بعد كينشاسا عاصمة الكونغو الديموقراطية. وحسب الإحصائية ذاتها، فإن كينشاسا، ليست المدينة الوحيدة في إفريقيا التي تتدرج ضمن أفضل عشر مدن ناطقة بالفرنسية في العالم، فهناك مدن أخرى من أبرزها أبيدجان وياوندي والدار البيضاء وباماكو وغيرها.

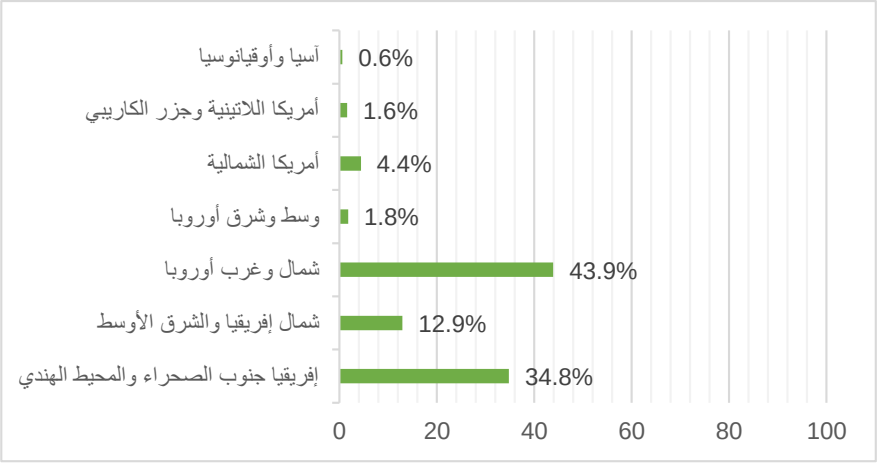

وفقا لأرقام المنظمة الدولية للفرانكوفونية الموضحة في هذا الرسم البياني[159]، فإنه في مقابل 43.9% من الناطقين بالفرنسية الموجودين في شمال وغرب أوروبا، هناك 34.8% والشرق

Demographia World Urban Areas 18th annual edition, july 2022.

159 Report by La Francophonie, The French Language Worldwide 2018. Published by Editions Gallimard in March 2019. P 7.

الأوسط. بينما تمثل أمريكا الشمالية 4.4% فقط، وأمريكا اللاتينية والكاريبي 1.6%، وأوروبا الوسطى والشرقية 1.8%، وآسيا وأوقيانوسيا 0.6%.

بناء على هذه المعطيات، ونظرا إلى مشيرات النمو الديموغرافي القوي الذي تشهده القارة الإفريقية، توقّع مرصد الإحصاء الديموغرافي للمنطقة الفرنكفونية (ODSEF)* سنة 2017م أن تحتلّ اللغة الفرنسية مكانة مهمة في أفريقيا، معلنا أن حوالي 55% من المتحدثين باللغة الفرنسية سيكونون أفارقة بحلول عام 2030م، ومن المتوقع، حسب المرصد، أن ترتفع هذه النسبة لتبلغ 66% عام 2050م و 78% عام 2070م، مقابل انخفاض كبير جدا في عدد المتحدثين باللغة الفرنسية في أوروبا، إذ ستنخفض نسبتهم من 43% سنة 2015م إلى 18% فقط، سنة2070م [160].

إن نتائج بهذا القدر، وتطلّعات من هذا الحجم، لم تكن لتعوّل على مكاسب استعمارية ضيقة، ولكنها كانت في حاجة إلى التأسيس لمرحلة "ما بعد الاستعمار". فقد استطاعت اللغة الفرنسية أن تحجز لنفسها هذه القوة الديموغرافية الهائلة، وأن تضمن لنفسها مكانة هامة في إفريقيا، بفضل توجه السياسة العامة الفرنسية نحو اشتراط (الفرنكفونية) في علاقاتها الدولية وخياراتها الاستراتيجية.

في سبيل تحقيق ذلك، لم يقتصر تأثير السياسة الفرنسية على الدول الإفريقية التي كانت خاضعة لسيطرة فرنسا، بل امتد، ليشمل الدول الإفريقية الأنجلوفونية أيضا، بحكم وقوعها، أو وقوع جزء منها تحت الاحتلال البريطاني، حاثّا حكوماتها على تغيير خطابها السياسي، خاصة، في قطاع التربية والتعليم، وبالذات، موضوع تعليم اللغات الأجنبية. ولإبراز مستوى هذا التأثير، نسوق الأنموذجين التاليين:

- اختراق النفوذ الأنجلوفوني: التموضع الاستراتيجي للغة الفرنسية في جمهورية غانا

* "Observatoire Démographique Et Statistique De L'Espace Francophone".
160 Report by La Francophonie, The French Language Worldwide 2018. (Ibid) P 6.

شرعت غانا، قبل استقلالها عن بريطانيا 1957م، في إدخال اللغة الفرنسية تدريجيا بنظامها التعليمي، ومنذ ذلك الحين، استمرت الإصلاحات الحكومية في الدفاع عن ضرورة تعليم وتعلّم اللغة الفرنسية في جميع المستويات. وبدعم من الحكومة الفرنسية، أدركت الحكومة الغانية (1970– 1995م) حاجتها المُلحّة إلى إنشاء مراكز إقليمية لتعليم اللغة الفرنسية[161]. وقد أثمر النقاش الذي استمر بعد ذلك حول وضعية اللغة الفرنسية بالبلاد، موافقة مجلس الوزراء الغاني عام 2002م على مراجعة وتنقيح السياسة اللغوية الغانية، وفق التعديلات التالية:

أولا: يجب أن تحُلّ اللغة الإنجليزية محل العامية باعتبارها وسيلة للتعليم في السنوات الثلاث الأولى من التعليم الابتدائي.

ثانيا: يجب على كل طفل غاني دراسة لغة محلية واحدة من المستوى الابتدائي إلى غاية المستوى الثانوي.

ثالثا: يجب تشجيع الطلاب على دراسة اللغة الفرنسية[162].

ومنذ ذلك الحين، أصبحت اللغة الفرنسية جزءا لا يتجزأ من التعليم الرسمي في غانا. وقد أبدى الرئيس الغاني كوفور kuffour (رئيس غانا لفترة 2001– 2009م)، في خطاب ألقاه أمام البرلمان في فبراير 2003م، رغبته الشديدة في فَرْنَسَةِ جمهورية غانا، معلنا أن حكومته تكرّس جهودها للنهوض بتعلم وتعليم اللغة الفرنسية في بلاده، عبر الزيادة التدريجية

161 Franco Gandolfi & Mensimah Thompson Kwaffo & Robert McAndrews & Steven J. Sacco & Kathleen Stein-Smith. French Language and Francophone Culture in Sub-Saharan Africa - Interdisciplinary Reflections on Multilingualism and French Language Education. International Journal of Humanities and social Science. Vol 11 No 10. October 2021. P 31.

162 Akosua Anyidoho, SHIFTING SANDS : LANGUAGE POLICIES IN EDUCATION IN GHANA AND IMPLEMENTAATION CHALLENGES. Ghana Journal of Linguistics. Vol 7 – No 2, 2018. P 228.

في أعداد كليات تدريب المعلمين، التي ستتكلف بتدريب المدرسين، معرفيا ومهاريا، لمساعدتهم على تعليم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية.

ورغم أن غانا كانت من الدول الإفريقية القليلة الناطقة باللغة الإنجليزية، إلا أنها نالت في عهد الرئيس كوفور منصب العضوية بالمنظمة الدولية للفرنكفونية ضمن مؤتمر القمة الحادي عشر الذي عقدته المنظمة في بوخاريست عاصمة رومانيا شتنبر 2006م، بشكل مباشر، ودون أن تشغل منصب مراقب،[163] واستفادت إثر ذلك من المساعدات التالية:

أ – تعزيز مهارات اللغة الفرنسية للدبلوماسيين والموظفين العموميين الغانيين ذوي المسؤوليات والمهام الدولية.

ب – زيادة عدد مدرسي اللغة الفرنسية في المرحلتين الثانوية والجامعية.

ج – تطوير الشراكة مع القطاع الخاص لتدريس اللغة الفرنسية في المؤسسات والجمعيات الخاصة.

ولا يمكن، لأي اعتبار، إنكار الجهود الحثيثة التي بذلتها الحكومة الفرنسية، في سبيل تهيئة المجتمع الغاني ماديا ومعنويا، وضمان صلته الوثيقة باللغة الفرنسية[164]. أما حكومة أكوفو* Akufo فقد عملت بعد ذلك، بشكل تدريجي، على أن تصبح اللغة الفرنسية ثاني لغة رسمية بعد اللغة الإنجليزية. وقد أُدرج هذ الهدف ضمن الإصلاحات التي باشرتها الحكومة

---

163 Franco Gandolfi & Mensimah Thompson Kwaffo & Robert McAndrews & Steven J. Sacco & Kathleen Stein-Smith. French Language and Francophone Culture in Sub-Saharan Africa - Interdisciplinary Reflections on Multilingualism and French Language Education. (Ibid) P32 .

164 Ambrose Bangnia, Challenges Of The Teaching And Learning Of French As A Foreign Language In Ghana : The Way Forward. International Journal of Advanced Research and Publications. Volume 4 Issue 01, January 2020. P 97.

* نانا أدو دانكوا أكوفو أدو Nana Addo Dankwa Akufo-Addo الرئيس الحالي لجمهورية غانا (2023).

في قطاع التعليم التي سعت من خلالها، إلى تعزيز مسار تدريس اللغة الفرنسية في المدارس العمومية، وبمختلف المستويات.

عموما، فإن حالة غانا تدفعنا للوقوف عند الاستنتاجات التالية:

- اعتماد اللغة الفرنسية كان لأسباب سياسية محضة.
- غياب سياسة لغوية ديموقراطية تضمن حق الغانيين في لغاتهم المحلية وفي هويتهم.
- التوجه الفرنكفوني جعل المجتمع الغاني يحاصر لغاته القومية، ويرهن مستقبله بالمكون اللغوي والثقافي الفرنسي.
- الفرنكفونية تعتمد تعددا لغويا يخدم المصالح الكولونيالية الفرنسية فقط.
- التحولات السريعة التي شهدها الوضع اللغوي الغاني يتنافى، كليا، مع التطور الطبيعي للغات.
- ضعف القرار السياسي الغاني جعله يبرّر اعتماد اللغة الفرنسية تبريرا سياسيا، بعيدا عن العلمية والموضوعية. ويبدو ذلك جليا فيما ردّده الرئيس أكوفو في خطاب ألقاه في أكتوبر 2018 بمناسبة القمة السابعة عشر للفرنكفونية التي عُقِدَت بالعاصمة الأرمينية يِريفان، عندما تحدث عن الفوائد التي نالها الشعب الغاني عبر اهتمامه باللغة الفرنسية، وقال:

"إن غايتنا أن نعيش يوما ما في غانا بلغتين، إنجليزية وفرنسية، بالإضافة إلى لغتنا الأصلية... يخبرنا التاريخ أن هذا هو أفضل طريق إلى التقدم والازدهار، وبمساعدة التكنولوجيا الرقمية، يمكننا تسريع وتيرة الاقتصاد، وخلق وظائف تسد حاجة شبابنا، خاصة وهم يتوافرون على إمكانات هائلة"[165]

2.2. سياسات الاستيعاب وإرث الاستعمار: مسار الهيمنة اللغوية في جمهورية الكاميرون

[165] Franco Gandolfi & Mensimah Thompson Kwaffo & Robert McAndrews & Steven J. Sacco & Kathleen Stein-Smith. French Language and Francophone Culture in Sub-Saharan Africa - Interdisciplinary Reflections on Multilingualism and French Language Education. (Ibid) P32 .

يرتبط الوضع اللغوي بالكاميرون مباشرة بالحقبة الاستعمارية، فما تعرضت له البلاد من حملات استعمارية أوروبية، وامتدادات ثقافية إفريقية، جعلها تعيش تعدّدا لغويا رحبا، الأمر الذي حال دون التزامها بسياسة لغوية ديموقراطية تُنصف الثقافة الكاميرونية، وتضمن استقرار هويتها، وتحافظ على بنيتها الاجتماعية المتنوعة. فبعد انهزام ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، صادقت عصبة الأمم على اقتسام الكاميرون بين فرنسا وبريطانيا، بمقتضى معاهدة فرساي عام 1920م، وبقي الأمر كذلك، إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية سنة 1945م. بعدها بعام واحد، وُضِعت الكاميرون تحت وصاية الأمم المتحدة، وبقيت فرنسا تحكم البلاد باسم الوصاية الدولية حتى عام 1959م[166].

لم تتأثر ثقافة الكاميرون التي بقيت تحت الاحتلال الألماني من 1884م إلى 1916م، ولا باحتلال البريطانيين بعد ذلك، بقدر تأثرها بالحملة الاستعمارية الفرنسية، التي جعلت التوسع الثقافي أكبر أولوياتها. فإلى حدود اليوم، وعلى الرغم من أن جمهورية الكاميرون تضم 247 لغة محلية، بالإضافة إلى الفرنسية والإنجليزية بصفتهما اللغتين الرسميتين[167]، إلا أن تأثير اللغة الفرنسية كان بالغا جدا في المجتمع الكاميروني. فمن مجموع عشر ولايات، تنتشر اللغة الفرنسية في ثماني ولايات، بينما تنحصر اللغة الإنجليزية في ولايتين فقط[168].

تجدر الإشارة إلى أن اللغات الأصلية بالكاميرون، كانت قد اكتسبت، بالفعل، مكانة كبيرة خلال الفترة التي سبقت الاستعمار، فهناك لغة البامون (Bamun) التي تم توحيدها من قبل السلطان نجويا (Njoya) واستخدمت للتعليم قبل وقت طويل من مجيء "المبشرين" الألمان

166 مؤمن إبراهيم، المدرسة العربية التقليدية ودورها في نشر اللغة العربية في الكاميرون. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية - المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة - فلسطين. العدد السابع - المجلد الثاني. أكتوبر 2018م. ص 145.

167 George Echu, The Language Question in Cameroon. Linguistik online 18, January 2004. P 19.

168 George Echu, The Language Question in Cameroon. (Ibid) P 20

وكذلك لغة الفلفولدي (Fulfulde) التي تم استخدامها لنشر الإسلام في المقاطعات الشمالية الثلاث، منذ القرن السابع عشر[169].

لكن الأمر كان مختلفا جدا في فترة الاستعمار، فقد شجّعت القوى الاستعمارية على استخدام لغاتها الخاصة، حيث عملت الإدارة الاستعمارية الألمانية (1884م – 1916م)، بكل قوة، على أن يستخدم المبشرون الألمان بالكاميرون اللغة الألمانية، رغم أنهم رفضوا هذا التوجيه أكثر من مرّة، وفضلوا اعتماد لغات السكان الأصليين، مثل الباسا (Basaa) والبولو (Bulu) والإيوندو (Ewondo) والمونجاكا (Mungaka) كونها لغات تسعفهم في تعليم المجتمع الكاميروني وتبشيره بكل طبقاته ومستوياته. لكن السلطات الألمانية كانت مصرة على فرض لغتها، على الرغم من تخلف النظام التعليمي الذي كانت قد أسسته بالكاميرون، وقد نجحت في ذلك، إلى حدّ ما، من خلال الضغط على المبشرين، حتى سيطرت، عبرهم، على الوضع اللغوي والنظام التعليمي[170].

عموما، فعلى الرغم مما أقدمت عليه السلطات الاستعمارية الألمانية من إجراءات سياسية لغوية تضمن نفوذها اللغوي، فإن ذلك لم يحرم اللغات الأصلية للكاميرونيين من الحياة. لكن، بعد هزيمة ألمانيا، ووصول القوى الاستعمارية الجديدة إلى الكاميرون، شهدت السياسة اللغوية بعض التغييرات. فإذا كان البريطانيون قد استمروا في استخدام اللغات الأصلية لأهالي الكاميرون بمناطق نفوذهم حيث تم استخدام بعض لغات السكان الأصليين مثل البافوت bafut، والدوالا duala، والكينيانج kenyang، والمونجاكا mungaka، في الإقليم الخاضع للانتداب البريطاني، إلى جانب اللغة الإنجليزية في المدارس الكاميرونية، وجعلوا ذلك أمرا حتميا، لأنهم كانوا يحكمون من خلال السلطات التقليدية هناك، فإن الفرنسيين مارسوا سياسة الاستيعاب في المناطق الكاميرونية الخاضعة لهم، من أجل تحويل الكاميرونيين إلى فرنسيين، فعمدوا إلى التضييق على استعمال اللغات الأصلية، بل وحظر استعمالها بشكل نهائي، مقابل

169 نفسه. ص 22.

170 نفسه. ص 22-23

فرض اللغة الفرنسية في مختلف المجالات الحيوية[171]. وقد كان التعليم من أكثر المجالات التي أولتها فرنسا آنذاك اهتماما كبيرا، فبالإضافة إلى إجبارهم على تعلم اللغة الفرنسية، وجد الكاميرونيون أنفسهم مجبرين على تعلم المواد الأخرى باللغة الفرنسية، بدءا من أول يوم لهم بالمدرسة. ومن أجل إنجاح هذا التوجه، عمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى تحفيز المدرسين الذين يعتمدون اللغة الفرنسية في المدرسة، عبر الرفع من رواتبهم بأكثر من 60%.[172]

من أجل مواجهة المبشرين الذين أصرّوا على استخدام اللغات الأصلية، اتخذت الإدارة الاستعمارية الفرنسية جملة من التدابير، هدفت من خلالها إلى تعزيز اللغة الفرنسية، وإزاحة اللغات الأصلية. ولتحقيق ذلك، خصصت الإدارة الفرنسية بالكاميرون عام 1917م إعانة مالية للمدارس التي تعتمد اللغة الفرنسية، فيما قامت بإغلاق المدارس التي خالفت توجيهاتها. فبين الفاتح من أكتوبر 1920م و28 ديسمبر 1920م تم إغلاق المدارس الـ 47 التي افتتحها الملك نجويا Njoya في منطقة بامون bamun حيث كانت بامون هي لغة التعليم. وقد تمت مواصلة تنفيذ هذا الاضطهاد اللغوي الممنهج، بقوة، حتى أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة المعتمدة في التعليم، بينما اقتصر استخدام اللغات الأصلية على التبشير والتواصل الشعبي.[173]

استمر اعتماد اللغة الفرنسية في الكاميرون الفرنسي واللغة الإنجليزية في الكاميرون البريطاني بصفتهما لغتين رسميتين، إلى أن توحدت جمهورية الكاميرون في فاتح أكتوبر 1961م فوجدت نفسها مجبرة على الاحتفاظ بالطابع الرسمي للغتين الفرنسية والإنجليزية في الجمهورية الفيدرالية الجديدة، تفاديا لمشكلتين اثنتين:

1. تجنب الصراع اللغوي الداخلي، على اعتبار أن اللغات الأجنبية لغات محايدة.

171 George Echu, The Language Question in Cameroon. (Ibid) P 23.
172 Steven Bird, University of pennsylvania. Orthography and Identity in Cameroon. April 13, 2001. P 8.
173 George Echu, The Language Question in Cameroon. (Ibid) P 23.

2. تجنب الكلفة المادية التي سيستنزفها اعتماد اللغات الأصلية للكاميرونيين[174].

في مرحلة ما بعد الاستقلال، تجاهلت الحكومة الكاميرونية وضع اللغات الأصلية، ولم يكن في نيتها مراجعة سياستها اللغوية ذات المرجعية الكولونيالية، بل إنها كانت تسعى، في الكثير من المناسبات، إلى تبرير هذه السياسة اللغوية "المفروضة" كما فعل أول رئيس للكاميرون "المستقلة" أحمدو أهيدجو Ahmadou Ahidjo عندما برّر سياسة الثنائية اللغوية بكونها استراتيجية تسهم، بشكل تدريجي، في بناء أمة كاميرونية متقدمة قائلا:

"عندما نفكر في اللغتين والثقافتين الإنجليزية والفرنسية، يجب ألا نعتبرهما ملكا لعرق من الأعراق، بل يجب أن نعتبرهما مكسبا للحضارة العالمية التي ننتمي إليها، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلنا نتبع مسار الثنائية اللغوية. إننا بسعينا إلى تطوير هاتين اللغتين العالميتين، سنظفر بمختلف المقومات التي ستجعلنا نسير نحو وحدة إفريقية قوية"[175]

الأمر الذي عجَّل ببروز حركات وأجهزة تعمل من أجل تعزيز اللغات الأصلية، كما هو الشأن بالنسبة لـ (PROPELCA)* التي نشطت منذ عام 1977م فيما يتعلق بتعليم اللغة الأم في الكاميرون. أضف إلى ذلك، جهات فاعلة أخرى مثل:

- SIL–Cameroon
- جمعية الكاميرون لترجمة الكتاب المقدس ومحو الأمية.
- الرابطة الوطنية للهيئات اللغوية الكاميرونية.

إلى جانب هذا، فقد أتاحت مجموعة من التطورات السياسية الفرصة لاندماج اللغات الأصلية في الحياة الكاميرونية، جنبا إلى جنب مع اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. من أبرز هذه التطورات:

---

174 George Echu, The Language Question in Cameroon. (Ibid) P 24.

175 Eric A. Anchimbe, Functional Seclusion and the Future of Indigenous Languages in Africa : The Case of Cameroon. University of Munich. January 2006, Pp (94-103).

* "Programme de recherche opérationnelle pour l'enseignement des langues au cameroun.

1. ضمان دستور جمهورية الكاميرون الصادر في 18 يناير 1996م تعزيز اللغات الوطنية، واعتبارها من مقومات التراث الثقافي الكاميروني، إلى جانب اللغات الرسمية (الإنجليزية والفرنسية).

2. إقرار البرلمان مشروع قانون تحت رقم 004/98 تم إصداره من قبل رئيس الدولة الكاميرونية بتاريخ 14 أبريل 1998م بشأن التوجه العام للتعليم في الكاميرون، وقد ركز مشروع القرار على ضرورة تدريس اللغات الوطنية[176].

استنتاج:

بفهم الظرفية التي دخلت فيها اللغة الفرنسية إلى إفريقيا، وبالاطلاع على حيثيات الممارسة الفرنكفونية، منذ اليوم الأول لعمل الإدارة الاستعمارية الفرنسية على توطين لغتها واجتثات اللغات المحلية، تتضح لنا معالم "السياسة اللغوية بالوكالة". وإذا كانت فرنسا، في فترة الاستعمار، قد قصدت اختيار إفريقيا لأسباب سياسية واقتصادية، فإنها، في الغالب، لم تخترها لأسباب ديموغرافية، حتى تكتشف اليوم، أنها نجحت في الاستيلاء، لغويا، على بيئة ديموغرافية خصبة، حافظت على ريادة اللغة الفرنسية في مصاف اللغات العالمية.

إضافة إلى ذلك، فإن هذا التتبع التاريخي للوضعية اللغوية، بكل من غانا والكاميرون، يؤكد الدور الكبير الذي لعبته السلطة السياسية، بمؤسساتها التشريعية والتنفيذية، في التمكين للغات الاستعمار، وبشكل خاص، الإدارة الاستعمارية الفرنسية، التي كانت وطأتها الثقافية شديدة جدا على الهوية الإفريقية، فقد استطاعت في ظرف وجيز أن تُوَطّنَ اللغة الفرنسية بدول إفريقيا، وتُهيئ السُّلطة السياسية التي ضمنت لها البقاء والاستمرارية. وعبر هذه النماذج، تنتفي جميع الظنون، حول دور السياسة في الوضع اللغوي، ليس في غانا والكاميرون فقط، بل في كل البلدان، وكل المجتمعات التي تعرضت للاضطهاد اللغوي. ولمن أراد أن يفهم، مثلا، كيف صارت مصر أنجلوفونية، فإن الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد اتفاق سياسي محض، بين فرنسا

176 George Echu, The Language Question in Cameroon. (Ibid) P 2.4.

وإنجلترا بمصر سنة 1904م، تحولت بموجبه النخبة المصرية من الفرنكفونية إلى الأنجلوفونية، كلغة للتعليم والإدارة[177].

وفي الوقت ذاته، لا يمكن إنكار الدعوات المتكررة، التي تصدر عن القوى السياسية ببلدان إفريقيا، في شأن الاهتمام باللغات القومية، أو تلك التي تعبّر عن عدم نجاعة التدريس باللغات الأجنبية، وقد يصل الأمر إلى رفع هذه الدعوات إلى المؤسسات التشريعية حتى تتم المصادقة عليها، لكنها تبقى مجرد مشاريع قوانين موقوفة التنفيذ، لمجموعة من الاعتبارات، قد تكون سياسية وقد تكون مادية.

خاتمة:

تأسيسا على ما سبق، يخلص هذا البحث من خلال تتبع المسار التاريخي والمؤسساتي للمنظمة الدولية للفرنكوفونية، واستقراء حالتي غانا والكاميرون، إلى أن الفرنكوفونية تمثل "سياسة لغوية بالوكالة" تستثمر في الهشاشة الاقتصادية والتعليمية للدول الإفريقية لإعادة إنتاج النفوذ الكولونيالي الفرنسي متدثرة بشعارات التعاون والتنوع الثقافي .وقد نجحت هذه الاستراتيجية البراغماتية في تأمين خزان ديموغرافي هائل ومستدام في القارة الإفريقية، مما حصّن مكانة اللغة الفرنسية عالميا في مواجهة المد الأنجلو–أمريكي المهيمن، وجعل استمراريتها مرهونة بشكل شبه كلي بالنمو الديموغرافي الإفريقي .إلى جانب ذلك، كشفت المقاربة التحليلية عن الدور المحوري للنخب والسلطات السياسية المحلية في تثبيت هذه الهيمنة، حيث استطاعت السياسة اللغوية الفرنسية اختراق المجال الأنجلوفوني الغاني بدوافع سياسية واقتصادية محضة، بالتوازي مع تكريس الإرث الاستعماري الإقصائي في الكاميرون، عبر تهميش مئات اللغات الوطنية لصالح الثنائية اللغوية الأجنبية .وفي المحصلة، يؤكد البحث أن هذا التوجه الفرنكوفوني يقف عائقا هيكليا أمام التطور الطبيعي للغات القومية الإفريقية ومساعي التحرر

[177] عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونية، إيديولوجيا، سياسات، تحدّي ثقافي، لغوي (حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية). (مرجع سابق) ص 50.

الهوياتي؛ فرغم تصاعد دعوات إحيائها، تظل مشاريع الإدماج الرسمي والتعليمي حبيسة الرفوف جراء الحواجز السياسية والمادية، وهو ما يرسخ في نهاية المطاف واقع التبعية اللغوية والثقافية لتلك الدول.

لائحة المصادر والمراجع:

- Akosua Anyidoho, SHIFTING SANDS : LANGUAGE POLICIES IN EDUCATION IN GHANA AND IMPLEMENTAATION CHALLENGES. Ghana Journal of Linguistics. Vol 7 – No 2, 2018
- Ambrose Bangnia, Challenges Of The Teaching And Learning Of French As A Foreign Language In Ghana : The Way Forward. International Journal of Advanced Research and Publications. Volume 4 Issue 01, January 2020.
- Eric A. Anchimbe, Functional Seclusion and the Future of Indigenous Languages in Africa : The Case of Cameroon. University of Munich. January 2006
- Franco Gandolfi & Mensimah Thompson Kwaffo & Robert McAndrews & Steven J. Sacco & Kathleen Stein-Smith. French Language and Francophone Culture in Sub-Saharan Africa – Interdisciplinary Reflections on Multilingualism and French Language Education. International Journal of Humanities and social Science. Vol 11 No 10. October 2021
- George Echu, The Language Question in Cameroon. Linguistik online 18, January 2004
- Jody L. Neathery-Castro and Mark O.Rousseau, Does French Matter ? France and Francophonie in the Age of Globalisation. The French Review, Vol. 78, No.4, March 2005. University of Nebraska at Omaha , USA
- Report by La Francophonie, The French Language Worldwide 2018. Published by Editions Gallimard in March 2019
- Steven Bird, University of pennsylvania. Orthography and Identity in Cameroon. April 13, 2001.

- عبد الإله بلقزيز. الفرنكوفونية، إيديولوجيا، سياسات، تحدي ثقافي – لغوي (حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية). مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ماي 2001م
- مؤمن إبراهيم، المدرسة العربية التقليدية ودورها في نشر اللغة العربية في الكاميرون. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة – فلسطين. العدد السابع – المجلد الثاني. أكتوبر 2018م